الباب الأول

العصور الحجرية

نبدأ بدراسة تفصيلية لحضارات العصر الحجرى القديم فى السودان . وقبل ذلك يجب أن نوضح أن هذه الفترة بالذات مازالت الأبحاث فيها فى طور النمو ، كما أن الحفائر تعطينا كل يوم مادة جديدة تصحح بعض افكارنا وتملأ الكثير من الثغرات .

وحتى الآن تتفق الأبحاث الأثريـــة التى تمت فى أنحاء مختلفة مـــن السودان على أن أقدم حضارات السودان الحجرية كونها اناس من العنصر الزنجى من نوع يختلف عما هو موجود حاليا ، وكان آركل أول من وضـع النقط على الحروف بالنسبة لتلك العصـــور الحجرية فى السودان (١) . وتبع ذلك أبحاث عديدة كشـــفت عن مخلفات حضارية تنتمى للعصـــور الحجرية بأنواعها المختلفة فى مناطق عديدة من السودان .

اولا : العصر الحجرى القديم

اولها : ذلك الذى ينتمى الى العصر الحجرى القديم واهم تلك المخلفات ما عثر عليه من ادوات حجرية ذلك السلاح المعروف بالفاس اليدوية — وهى قطعة بيضاوية من حجر الصوان ، مدببة من الطرف الأسفل ومصقولة وذات حد قاطع ، وكانت تمســـك فى قبضة اليد من جانبها البيضاوى ، أعدها الانسان واستعملها فى الصيد والقتال وقطع الأشجار — واكتشفت تلك الأدوات فى المكان المعروف باسم « خور ابو عنجة Abou 'Anga» (٢) .

---

(١) أنظر :

Arkell, Early Khartoum; Shaheinab; The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan.

(٢) وهو قائد من قواد المهدية عسكر فى نفس المنطقة

ويقـــع غربى النيل على بعد اقل من كيلو متر واحد من مكان التقاء النيـــل الأبيض بالنيل الأزرق عند المقرن ، وهناك عثر عـــلى ادوات من العصر الحجرى القديم الأسفل بنوعية الشيلى والأشولى وهما اقدم ازمنة العصر الحجرى القديم على التوالى (٣) .

وهذه تسميات تعارف عليها العلماء ، وتنسب الى اول الأماكن التى عثر فيها على آثار من هذا النوع فى فرنسا ، ومع أن الاكتشافات توالت بعد ذلك فى أماكن اخرى من العالم الا أن الباحثين احتفظوا بالتسميات الأولى كما هى . واهم الأدوات الشيلية هى الفأس اليدوية ، أما اهم الأدوات الأشولية فالى جانب تهذيب الفأس اليدوية ، صـــنع الانســـان من شظايا الظران سكاكين حادة استعملها فى تجهيز الجلود وغير ذلك . وفى ابريل سنة ١٩٦٦ عثرت بعثة جامعة كلورادو فى خور ابو عجة كذلك على ادوات من أقدم ازمنة العصور الحجرية القديمة ، وعثر على آثـــار أخرى عمرها حوالى ١٢٫٠٠٠ سنة (٤) . كما عثر على أدوات ترجع الى تاريخ يسبق ظهور الحضارة الشيلية . وفى مكان آخر يسمى وادى سيرو Wadi Seru غربى النيل ايضا ، وعلى بعد ٢٤ كم شمالى أمدرمان ، عثر على أدوات من العصر الأشولى المتأخر ، كما عثر ايضا على آثار اشولية فى المكان المعروف باسم وادى عفو Wadi Afu ويقع الى الجنوب من أمدرمان بحوالى ٨٠ كم غربى النيل الأبيض ، وتعتبر هـــذه المنطقة اقصى نقطة فى الجنوب حتى الآن عثر فيها على آثار تنتمى الى العصر الحجرى القديم ، وذلك حتى حدود السودان فى الجنوب مع أوغندا ، هذا باستثناء بعض الآثار التى وجدت على سطح الأرض فى مدينة الفاشر والموجودة حاليا فى متحف أكسفورد بانجلترا . ولو أن بعض العلماء يشك فى انتمائها اصلا

---

(٣) الشيلية نسبة الى شيل Chelles على نهر المارن Marne الأشولية نسبة الى سانت اشول بالقرب من امين Amiens فى فرنسا كما سبق أن ذكرنا .

(٤) أنظر :

Leclant, Fouilles et travaux en Egypte et au Soudan, 1965-1966, p. 215, in Orientalia 36 Fasc. 2, 1967, pp. 181-227.

للماشر . والواقع ان الأمر يحتاج الى الكثير من عمليات الاستكشاف والبحث قبل أن نطلق الكلام بهذا التعميم .

وبعد ذلك يمكن ان تحدد الأماكن التالية والواقعة الى الشمال من الشلال السادس ، والتى عثر فيها على آثار من العصر الحجرى القديم : فمثلا فى خور الهودى (الذى يلتقى بنهر عطبرة قبل اتصاله بالنيل بحوالى ١٦ كم) ، هناك ، وعلى بعد ٣ كم تقريبا من نقطة التقاء الخور مع نهر عطبرة ، عثر على آثار شيلية وأشولية ، وبالقرب من الشلال الخامس فى وادى الشيخ هلال شمال الجبل المعروف باسم جبل نخرو Nakharu ظهرت آثار شيلية وأشولية ، وفى نورى Nuri جنوبى الشلال الرابع ، عثر على آثار من الحضارتين الشيلية والأشولية ، وبالقرب من تنقاسى Tangassi جنوبى نورى ، عثر على آثار هى قطع تمثل السلاح المعروف بالفأس اليدوية ، وهناك اماكن اخرى عديدة مثل وادى قعب Ga'ab ويقع غربى النيل بالقرب من مدينة دنقلة العرضى ثم وادى خـــوى Khoui فى شرق النيل ، وفى واوا Wawa عثر على آثار سابقة فى ظهورها للشيلية والأشولية ، وفى جزيرتى صاى وعبرى Sai, Abri عثر عـــلى آثـــار شيلية واشولية . أما المنطقة الممتدة شرقى النيل بين عبرى جنوبا وبين الشلال الثانى شمالا ، أى على امتداد المنطقة الصخرية المعروفة حاليا باســـم « بطن الحجر » والتى تمتد الى مسافة ١٤٤ كم جنوبى وادى حلفا ، لم تمدنا بأية آثار من العصر الحجرى القديم الأسفل .. وعلى وجه العموم فانه لم يعثر فى المنطقة الغربية من بطن الحجر الا على محـــلات متفرقة من عصور ما قبل التاريخ اذا ما قورنت بالمنطقة المحيطة بوادى حلفا . كما عثر على ادوات يرجع تاريخها الى ما قبل ٣٠٫٠٠٠ ق . م . أى الى العصر الحجرى القديم الأوسط . وكذلك على ادوات تعود الى العصر الحجرى القديم الأعلى وحين حدد عمرها بمساعدة الكربون ١٤ المشع (C 14) تبين انها ترجع الى حوالى سنة ١١٫٧٠٠ ق . م ± ٣٠٠ سنة (٥) وعثر فى نفس المنطقة أيضا على ادوات حديثة نسبيا من العصر

---

(٥) ومعنى ذلك ان جهاز الكشف عن عمر الآثار ، من واقع نسبة الكربون العادى — والموجودين بنسب ثابتة فى كل مادة عضوية (عظام أو

=

الحجرى الوسيط والعصر الحجرى الحديث ، وبعضها ينتمى الى حضارة المجموعة الأولى المؤرخة بحوالى سنة ٣٫٠٠٠ ق . م . ولكن الملاحظ انه لم يعثر ضمن تلك الأدوات التى ترجع الى العصر الحجرى القديم على ما يعرف بالفؤوس اليدوية المميزة لذلك العصر . كما لم يعثر فى تلك المنطقة على اية مخلفات لعظام الانسان من عصور ما قبل التاريخ . على الرغم من توافرها فى جزيرة دبروسة Dabarosa الى الشمال من وادى حلفا . ومن دراسة مخلفات انسان العصر الحجرى القديم فى تلك المنطقة نعرف انه عاش على صيد الحيوانات كالغزال أو الماعز البرى أو الحمر الوحشية . وربما كان قد تمكن من استئناس الماعز . كما عثر على كثير من أجزاء لبيض النعام الذى كان يستعمله فى حياته اليومية ولم تعثر البعثة الأثرية على دليل يبين معرفة هؤلاء القوم لصيد الأسماك أو أنهم قد توصلوا لمعرفة الزراعة على الرغم من ان صيد الأسماك كان أمره معروفا بدرجة كبيرة عند مضايق الشلال الثانى من حول Abka الى الشمال منها وذلك فى العصر الحجرى الوسيط ، الا انه لم يعثر سوى على القليل من الدلائل التى تشير الى توصل سكان منطقة بطن الحجر الى صيد الأسماك (٦) .

وفى واحة سليمة التى تقع الى الغرب على مسافة بعيدة من الوادى عثر على آثار شيلية متأخرة ، كما عثر بالقرب من وادى حلفا على مخلفات ترجع الى العصر الحجرى القديم الأعلى ، وغربى النيل تجاه وادى حلفا عثرت بعثة جامعة كلورادو سنة ١٩٦٣/٦٢ على سبع مواقع لحضارة العصر الحجرى القديم الأوسط والعصر الحجرى القديم الأعلى ، وعلى الرغم من عدم ظهور الفؤوس اليدوية هناك وبقايا الأوانى الفخرية ،

= أخشاب) تبدأ فى التغير نتيجة لفقدان الكربون المشع جزءا من وزنه بعد وفاة الكائن الحى — يشير الى عمر الأثر بالرقم ١١٫٧٠٠ سنة مثلا ثم يضيف احتمال خطأ بالزيادة (+) أو النقصان (—) مقداره ± ٣٠٠ سنة .

(٦) Gordon W. Hewes, Investigations on the West Bank in The Batn el Hagar, Kush XIV. pp. 25-43, p. 28.

الا أن الأدوات المشطوفة والمصنوعة من الظران وعظام الحيوانات وكذا أماكن مواقد النار التى استخدمها أولئك القوم كانت واضحة جلية .

أما فيما يتعلق بمنطقة النيل الأزرق ، فقد عثر عند مدينة سنجة فى سنة ١٩٢٤ على جمجمة لانسان ، وبعد فحصها تبين أنها تنتمى الى عنصر قديم من نوع ما قبل البوشمن أو البوشمن الأوائل Proto - bushman وتعد من أقدم المخلفات البشرية التى عثر عليها فى السودان على الاطلاق .. وقد دلت الأبحاث على أن ذلك النوع من البشر عاش فى الزمن الأخير الواقع بين العصر الحجرى القديم الأسفل والعصر الحجرى القديم الأعلى . والملاحظ أن مخلفات ذلك الانسان فى كل من مدينتى سنجة وأبو حجار Abu Hugar على عمق ٨ر٤٠ مترا فى باطن الأرض ، تختلف عن مخلفات الانسان العصر الحجرى القديم فى غيرها من مناطق السودان من ناحية قلة ظهور الفؤوس اليدوية .

وفى عام ١٩٦٥ عند جبل الصحابة الى الشمال من مدينة حلفا عثرت بعثة الحفر الأمريكية على خمسين هيكلا عظميا ، تبين أن عمرها ما بين ١٢ر٠٠٠ ، ٨ر٠٠٠ سنة قبل الميلاد أى أنها ترجع الى العصر الحجرى القديم الأعلى ، وهى أكبر مجموعة من الهياكل البشرية من نهاية زمن البلايستوسينى يعثر عليها فى قارة أفريقيا على الاطلاق . وقد عكفت البعثة على دراسة تلك المجموعة الهامة من العظام الآدمية لتخرج منها بدراسة مفصلة عن العنصر البشرى الذى كون تلك الحضارة الموغلة فى القدم . ومن الدراسات الأولية اتضح أنها للانسان المفكر homs sapiens او الانسان الحديث (وهو نفسه انسان الكروماتيون الذى ظهر أول ما ظهر فى فرنسا ونسبت اليه حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى) . وكان انسان ذلك العصر ضخم الجثة قوى العظام .. وقد نقلت البعثة تلك الهياكل معها الى جامعتها ساوث ميثودست South Methodest بالولايات المتحدة الأمريكية لدراستها ، وتركت هيكلا واحد لمتحف الخرطوم رقم 18685 (٧).

---

(٧) انظر : The 1965 Field Season of the Southern Methodist University, by Wendorf, Shiner, Marks, Heinzelin, Chmielewski, Schild in Kush XIV (1966) pp. 22/23.

وكان انسان ذلك العصر صيادا يعيش على صيد البر والنيل ، وعلى ما يجمعه من ثمار الأشجار ، وليس هناك من الشواهد ما يدل على معرفته بالزراعة أو استئناس الحيوان ، وكانت الصحراء الحالية تمتلىء بالحياة النباتية والحيوانية (٨) .

ولقد أثبتت الاكتشافات الجيولوجية التى قامت بها البعثات الحديثة فى النوبة أن نهر النيل قبل أن يتمكن من شق مجراه الحالى فى هضبة النوبة قبل حوالى ٥٠٠ر٠٠٠ سنة ، كان له عدة فروع داخل الصحراء .. وعلى طول تلك المجارى المائية القديمة أيضا عاش انسان العصر الحجرى فى السودان ، ولقد عثر على مخلفات ترجع الى ذلك العصر على مسافة ٣٢ كم داخل الصحراء . وحوالى ١٠٠ر٠٠٠ ق . م . ازدادت نسبة الأمطار التى كانت تسقط على منطقة النوبة مما هيأ الجو المناسب لكثير من الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيلة والزراف ، ولابد أن تلك الصور والرسوم الصخرية المنتشرة على صخور النوبة ؛ انما هى تسجيل قام به انسان ذلك العصر لما حوله من طبيعة .

قام انسان العصر الحجرى القديم بدفن موتاه قريبا من مساكنه ، وزودهم بما ظن أنه يعينهم على الحياة بعد الموت من متاع الدنيا وأسلحتها ، حسب اعتقاداتهم الدينية التى يتضح منها ايمانهم بالبعث بصورة أو بأخرى . وقد لوحظ أن السكاكين ورؤوس السهام المستعملة والمصنوعة من حجر الصوان كانت من نوع يشبه ما كان موجودا فى شمال الوادى من زمن العصر الحجرى القديم الأعلى . كما استعمل انسان ذلك العصر خطافا معينا لصيد الأسماك صنع من العظام .

ثانيا : العصر الحجرى الوسيط Early Khartoum

وينسب هذا العصر عادة الى منطقة الخرطوم — نظرا لأن اهم موقع عثر فيه على آثار من ذلك العصر أسفل الأرض التى أقيم فوقها مستشفى الخرطوم الحالى ويطلق عليه عصر حضارة الخرطوم الباكرة

---

(٨) Rex Keating, Return to the Land of Kush, in Unesco - Courir, December 64, p. 29/30).

ولعل هذا العصر بدأ بعد سنة ٧٠٠٠٠ ق ، م . واستمر الفين أو ثلاثة آلاف سنة . وكان الجو أكثر رطوبة مما هو عليه الآن ، حيث عاش الانسان على صيد الأسماك والحيوانات ، التى كثر وجودها فى النهر وعلى جمع الثمار ايضا . وصنع انسان العصر الحجرى الوسيط فى السودان ، لأول مرة ، الأوانى الفخارية بشكل غير محتمل ، ولكنه زينها بالزخارف البسيطة . وصانع هذه الحضارة التى أخرجت للعالم أول أوانى فخارية بحضارة السودان القديم على الاطلاق — وربما كانت هى أقدم أوان فخارية من قلب افريقيا على الاطلاق — هو من النوع المتأثر بالسلالات الزنجية .

ثالثا : حضارة العصر الحجرى الحديث

أما بالنسبة للعصر الحجرى الحديث ، فقد عثر على مركز من اهم مراكزه الحضارية فى الشهينات غربى النيل ، وعلى بعد حوالى ٤٨ كم شمالى أمدرمان . وتتميز تلك الحضارة بأنواع الفخار الأسود او ذى الحافة السوداء . ومما يجدر ملاحظته انه لم يعثر على مدافن لأصحاب تلك الحضارة ، لا فى داخل المساكن ولا بالقرب منها ، أو بعيدا عنها .. ولذلك ، يظن ان هؤلاء الناس كانوا يتخلصون من جثث موتاهم بالقائها فى النهر . وقد كشف بروفسور هنتزا عن مركز حضارى لأصحاب حضارة العصر الحجرى الحديث فى شجانود أو شجدودShagadud جنوب شرقى النقعة فى منطقة البطانة . والملاحظ أن عملية البحث عن مراكز حضارة العصر الحجرى الحديث ، لم تبدأ بعد بطريقة منظمة عدا المنطقة الواقعة شمالى الشلال الثانى ، والتى تعرضت لبحيرة السد العالى .

ولعدم توافر المادة الأنثروبولوجية (بقايا العظام الآدمية) لا يمكن الجزم ان كان أصحاب حضارة العصر الحجرى الحديث من نفس العنصر البشرى الذى أقام الحضارة السابقة أم انهم ينتمون الى العنصر الأسمر Brown race . وعلى اىحال فان ما تحت أيدينا من الآثار يدل على أن انسان العصر الحجرى الحديث بالسودان ، قام بتطوير أدواته الحجرية واستعمل كثيرا من حلى الزينة ، ولا شك انه استطاع أن ينتقل عبر النيل بما يشبه القوارب البسيطة ، ولعله استعملها أيضا فى الصيد . وليس هناك من

شواهد تدل على معرفة انسان ذلك العصر بالزراعة . مع العلم أنه توصل الى استئناس بعض الحيوان ، كما يتبين من بقايا العظام الحيوانية التى تركها ضمن مخلفاته . وتدل الشواهد على أن الطقس قد بدأ يتغير عما كان عليه فى العصر السابق حيث أخذت الأمطار تنحسر تدريجيا نحو الشمال ويسود الجفاف النسبى . وقد استطاع آركل (٩) بمساعدة الكربون ١٤ (المشع) أن يعطى عمرا لبعض مخلفات تنتمى الى العصر الحجرى الحديث عثر عليها فى الشهينات كالآتى :

(١٠) Jebel Qerri وفى جبل قرري ٣٨٠ ± ٤٥٠٦٠ ± عاما ، الى الشمال من محطة السكة الحديد من حول تل جرانيتى عثر على عدد من المقابر على شكل اكوام Tumuli عددها حوالى ثمانية أو عشرة ومساحتها بين ٥ر١ متر ٣ر٠ أمتار ومن حولها قطع كبيرة من الفخار بعضها يحمل زخارف بسيطة هى خطوط متموجة او منقوطة والتى تميز حضارة الخرطوم الباكرة وحضارة الشهينات عن غيرها ، مما يبعث على الاعتقاد بأن هذا المكان كان مأهولا فى العصر الحجرى الحديث .

وينتمى الى تلك الحقبة . كثير من النقوش الصخرية التى عثر عليها مسجلة على صخور النوبة المصرية والسودانية . وجدير بالملاحظة أن كثيرا من مظاهر حضارة العصر الحجرى الحديث بالخرطوم ، كان لها نظير معاصر ، يتمثل فى حضارة العصر الحجرى الحديث بالفيوم ، وهى أقدم حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر على الاطلاق ، وتنحصر تلك المظاهر فى :

(أ) كثرة استعمال النار فى طهى الطعام . (ب) وتوصل أصحاب الحضارة لاستئناس بعض الحيوان . (جـ) عدم التوصل لمعرفة الزراعة .

(د) وعدم دفن الموتى داخل المساكن . (هـ) واستعمالهم لنوع معين من رؤوس السهام الحجرية ذات الرؤوس المجنحة . ثم استعمالهم لأنواع

---

(٩) Arkell, Shaheinab, p. 107; Kush 11 p. 90.

(١٠) انظر : Hintze; Kush VII p. 177. f. Preliminary Report of the Butana Expedition pp. 177-196.

متشابهة من الفخار وخرز الزينة . ولا جدال فى أن ذلك يؤكد الصلة الحضارية بين شطرى الوادى منذ اقدم العصور .

هذا وما زلنا نفتقر الى المعلومات عن التطور الحضارى الذى حدث بين حوالى سنة ٣٨٠٠ ق . م . ، وحوالى سنة ٣١٠٠ ق . م . بالنسبة الى تاريخ السودان القديم ، وهى نفس المرحلة التى ظهرت فيها حضارة عصر ما قبل الأسر فى مصر .

وفى واقع الأمر ان ما تم اكتشافه من محلات حضارية ترجع الى العصور الحجرية لا يزيد على نسبة ضئيلة ، مما يمكن أن يظهر فى المستقبل القريب ، اذا ما بدىء فعلا فى الكشف المنظم عن ذلك التراث القديم .